لوسى

للقصصى الإنكليزى سومرست موم
بقلم الأديب عبد الوهاب محمد

كانت ، إذا غبت عن مجلسها ، لا تذكرنى إلا بلاذع القول ، وقارص الكلم . وما كنت أستغرب ذلك منها ، فإن لوسى كانت تبغضنى وتضيق بى ، وبرغم ذلك كله كانت دائمة الاحتفال بى ، شديدة الانشغال بأمرى . أما مصدر ذلك الاحتفال ، وسبب ذلك الانشغال فقد كان سدا مغلقا دونى . ولكن مزيدا من رقة ، وفيضا من حياء كانا يمنعانها أن تصرح أمامى برأيها فى . وحتى ذلك ما كان يحول بينها وبين ما تهدف إليه من معنى وما تقصد إليه من رأى ، فهى تصل إلى ما تريد بالنظرة العاتبة أو الإبتسامة الرشيقة أو

تبرد فى اللحظة التى جثوت فيها على ركبتى بجوار جيبى لأخفف من بأسها ، وأؤمن خوفها ، وأطمئنها بأنها ابنتنا ، نعم ابنتنا التى لن نسمح لأحد أن يأخذها منا ، إلا إذا أبدت هى رغبة أخرى ؛ وقلت لها ولكنك تريدننا أليس كذلك ؟! فحملقت الطفلة فى وجهى وابتهج وجهها كشروق الشمس فى اليوم الصحو ، وارتمت بين

التبدة الحرى

عشرت لوسى خمسة وعشرين عاما فوجدتها طرازا من النساء فريدا ، ولونا من الحسان طريفا ؛ فهى لا تعرف للعشرة الطويلة قيمة ، ولا تحفظ للود حرمة ، وقد كنت فى نظرها رجلا غليظ القلب ، بليد الإحساس ، سقيم الوجدان ، ساخرا بالدنيا ، هازلا بالناس ، ولم يكن ليعجبنى ذلك الرأى منها بقدر ما يعجبنى تعلقها بى ، وانجذابها نحوى ، فهى لا تفكر مطلقا أن تحول بينى وبين نفسى ، ولكنها كانت دائما تلاحقنى بدعواتها للغداء أو للعشاء أو الشاى ، وفى بعض الأحايين كانت تهبى

ذراعى ، ونادتنى : أمى ، أمى ، فى صوت خافت فرح ، وهكذا نادتنى لأول مرة ، بينما كان هانك ينظر إلينا كأنما تقيم فى سويداء قلبه . ولم أستطع مغالبة دمعى الذى انهمر من عينى ؛ ولكنها كانت دموع الفرح ، كانت دموع السلام ، كانت دموع الاستجابة

زينب الحكيم

لى فى أجازة آخر الأسبوع برنامجا لطيفا فى بيتها الريفى الجميل

وأخيرا اكتشفت سر ذلك التملق والانجذاب ، ولم يكن غير الشك والظن : الشك القاتل الذى يقلق مضجعها فى أنى لم أكن أثق بها ، والظنة المبرحة التى تثير أعصابها أنى لم أكن أومن بها . وهذا الشك وهذه الظنة هما الشئ الذى كان يمضنى إليها وفى الوقت نفسه يربطها بى . وكيف لها أن ترتاح أو تستريح منى وأنا الأوحد بين الناس الذى لم يكن يرى فيها غير أضحوكة وملهاة ، وقد يصح أنها كانت تحس إحساسا خفيا أنى كنت أبصر وجهها الحقيق وراء ذلك القناع التنكرى الذى كانت تبدو فيه ، فما كان يقر لها قرار ، ولا يهدأ لها بال حتى ترانى قد أخذت القناع على أنه الوجه ولكن هيهات لما تريد !

ما كنت لأجزم بأن لوسى كانت مدعية مفترية ولكنى كنت دائما أسائل نفسى : أفلحت هذه المرأة فى خداع نفسها كما خدعت الناس من قبل ، أم هى جذوة من دعابة وروح من فكاهة استقرت فى أعماقها تحبب إليها ما تفعل ، وتزين لها ما تقول ؟! وإذا صح ظنى هذا الأخير فربما كانت لوسى تنجذب إلى بوصفى صديقا لدودا لها يقاسمها سرا تخفيه عن الناس أجمعين !

وترجع بى الذاكرة بلوسى إلى ما قبل زواجها يوم كانت فتاة صغيرة هزيلة مرهفة رقيقة نحيلة وإنى لأذكر عينيها تينك الواسعتين الجميلتين وقد غشتهما سحابة حزن تزيدها جمالا على جمال ، وأذكر أن والديها كانا يفتنان فى تدليلها ورعايتها ، ويتنافسان على حبها ومرضاتها . وأذكر أن مرضا أصابها أغلب ظنى أنه الحمى القرمزية ، أورثها قلبا واهيا واهنا متمضما ، وكان عليها أن ترفق به وترعاه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا

ولما جاءها (توم ميتلاند) خاطبا روع والداها واضطربا ، لاعتقادهما أن قلبها كان أضعف من أن يدير بيتا أو يتحمل عبئا ، وأن جسمها كان أوهن من أن يقوم على زوج أو يسهر على ولد ؛ ولكنهما لم يكونا على ثقة من المبتلى مثلما كان توم . ثم أن هذا قد أكد لهما أنه مسخر نفسه وما تملك لإسعاد لوسى وإمتاعها ، فلم يجدا بدا من أن يحملاها أمانة فى عنقه ، ووديعة بين يديه

كان توم ميتلاند قويا جميلا ، وكان شخما طوالا ، وقد توله فى حب لوسى وتدله ، واعتقد كما اعتقد غيره من الناس أن عمر لوسى معه ، بقلبها ذلك الضعيف الواهن ، سيكون كعمر الزهر أو أقصر ، ولذا أمضى العزم على أن يجمل من أيامها القليلة معه رغدا وبرا وسعدا ، فهجر توم أحب أنواع

الرياضة عنده ، ولم ترغب إليه لوسى فى ذلك إذ أنه كان يسرها أن تراه يخرج للصيد أو الجولف . ولكن نوبة القلب كانت تغشاها كلما هم أن يتركها أو يبعد عنها ، ففتنه ذلك فى رياضته وصده عنها

وقد يختلفان فى أمر من أمور الدنيا ، أو فى مسألة من مسائل البيت فتكون لوسى هى المذعنة الخاشعة ، فهى أطوع زوجة يحلم بها رجل ولكنها ما تكاد تنصاع لما ترى زوجها حتى يصرعها « القلب » فتلازم فراشها أسبوعا أو نحو أسبوع ؛ ثم بعد ذلك يتجادلان فيما اختلفا فيه من قبل جدلا رفيقا ، فما يقدر توم أن يصرفها عما انصاعت إليه إلا بعد لأى شديد

شاركتها وتوم ذات مرة فى رحلة خلوية قصيرة كانت إليها مشوقة ، وقد نعمت بها وابتهجت ، ومشت فيها أميالا ثمانية ما ارتفع لها صوت بشكاة ، وفى ذلك قلت لتوم :

« إنها أصلب عودا مما تحسب ويحسب الناس »

ولكن توم هز رأسه هزة من لا يوافق وقال لى :

لقد عرضت على أبرع أطباء القلب فى العالم ؛ واتفقوا جميعا على أن حياتها معلقة بخيط واه ولكن لها روحا لا تقهر

وقد سمعت لوسى مقالتى تلك منه فقالت لى :

« غدا سأدفع الثمن غاليا ، وسوف أذوق طعم الموت علقما »

ولكنى رددت عليها :

يقينى أنك دائما قوية جدا لتنهضى بما تريدين

وتلك حقيقة ، فقد كنت ألاحظ أنها تغشى الحفلة الساهرة ، تروق لها فترقص فيها وتمرح حتى الصباح . وتغشى الحفلة الساهرة تظلم أمامها وتثقل عليها ، فتشعر بأسقام الدنيا تبرح بها ؛ فيضطر توم أن يعود بها إلى البيت مبكرا . أما ردى عليها فأغلب ظنى أنه لم يقع فى نفسها موقعا حسنا ، فقد رأيت فى وجهها ابتساما متكلفا ورضا مصطنعا . ولكن عينيها الزرقاوين الجميلتين كانتا تقدحان شررا ، ثم إنها لم تستطع أن تحكم نفسها أو تزجر لسانها فانطلقت تقول لى :

« لكأنى بك تنتظر حتى أسقط مغشيا على ، فأموت لتسر وترضى »

ولكن لوسى لم تسقط ، ولم يغش عليها ولم تمت ، ولم تمرض ، فقد عاشت حتى وارت توم فى التراب

لاقى المسكين حتفه فى رحلة نهرية اشتد فيها الصقيع وقرس الماء ، واستأثرت لوسى بالألحفة والأغطية من دونه . فراح توم

ضحية لنزلة ذلك البرد

مات توم وقد ترك لها ثروة طويلة عريضة وطفلة صغيرة جميلة . ولا شك أنها رزئت بموته، ولكنها استطاعت أن تغالب أحزانها في صبر جميل . وكان أهلها وأصدقاؤها جميعا يرون أن لحاقها بزوجها أمر وقت لا أكثر . فكانوا يرثون لأريس طفلتها تلك الصغيرة الجميلة . ولكنهم لا يلتفتون في ذلك الوقت لأريس بقدر ما يلتفتون لأمها لوسي ، فهم جميعا مشغولون بها ، فما كان لها أن تحرك أصبعا أو تنشط قليلا ، وكيف لهم أن يخلوا بينها وبين الحركة والنشاط وقد رأوها بأعينهم تسقط صريعة نوبة القلب ، ونقف على عتبة الموت كلما أخفت نفسها بعمل فيه نصب

* * *

لقد أصبحت لوسي في حيرة من أمرها : فلا ذراع قوية تتكئ عليها ، ولا صدر رحيب تسكن إليه ، وكيف يتأتى لها تربية تلك الصغيرة أريس وهي على ما هي عليه من سقم . هكذا كانت تقول لمن حولها من الأهل والأصدقاء ، فيسألها هؤلاء وهؤلاء : لم لا تتزوجين ثانية ؟ فتجيبهم أن ذلك أمر لا يمكن أن تفكر فيه أو تفعله وهي في مرض قلبها . وتزيد على ذلك بأن روح توم العزيز لا شك مباركة أمراً كذلك لو تم ، وربما كان زواجها خيرا ورحمة بأريس لو أقدمت عليه . ولكن من يجرؤ أن يحمل بنفسه مسئولية الزواج من امرأة ارمضت جوانحها الآلام ؟

والغريب من الأمر أن أكثر من فتى تقدم ليحمل تلك المسئولية الضخمة — مسئولية الزواج من لوسي !

وبعد سنة من وفاة توم كانت صاحبتنا تسرع الخطا نحو مذبح الكنيسة لتعقد قرانها على جورج هوبهاوس

وكان جورج فتى رائع القسوام ، سمح المحيا . ولم أر رجلا يقر بالفضل ويعترف بالجميل كما كان جورج يفعل وهو يقترن بتلك الأرملة الصغيرة الهزيلة . كانت تقول له :

« سوف لا أعيش طويلا يا جورج ، وسوف لا أكلفك من أمرك رهقا »

وكان جورج جنديا طموحا . وكانت لوسي في عنايتها بصحتها تقضي الشتاء في مونت كارلو ، وتقضي الصيف في دوفيل . وقد تردد جورج قليلا أو كثيرا وهو يهم بترك عمله . وكانت لوسي في بادئ الأمر لا تسمع إليه وهو يعرض لحديث الاستقالة ولكنها حسمت آخر الأمر ، كما كانت تخضع دائما . واستقال جورج من الجيش ثم أصبح ولا شغل له إلا راحة لوسي

وإسعادها !

وفى السنتين أو الثلاث التى أعقبت زواجها من جورج رأيت لوسى ، بالرغم من ضعف قلبها ، تتزين فى تبرج ، وتغشى الحفلات فى مرح ، وتقامر فى جنون ، وترقص فى طرب ، وتداعب الشباب فى دل وتيه

ولم يكن جورج هومهاوس فى قوة زوج لوسى الأول : فكان يضطر من ساعة لأخرى أن ينعش نفسه بشراب قوى يعينه على عمله اليومى المضنى ، بوصفه زوج لوسى .. الثانى ! وكان محتملا أن تتحكم عادة الشرب تلك فى جورج فتغضب لوسى وتقلق . ولكن لحسن الحظ شبت نار الحرب ، فالتحق جورج بفرقته من جديد

ولم تمض شهور ثلاثة حتى جاءها نعيه

* * *

فدحتها الصدمة . ولكنها استجمعت قواها وقررت ألا تستسلم للأحزان فتعصف بها الأحزان ، وألا تجتر الآلام فتصرعها ؛ ثم رأت أن تجعل من كرمتها الصغيرة فى مونت كارلو مستشفى يستقبل الضباط الناقهين ، ويشغلها عن دنياها تلك الخاوية الباكية ... وكان جميع أصدقائها يؤكدون لها أنها لا تقدر على كل تلك الجهود والاعباء ولكنها كانت ترد عليهم :

إنها ستقتلنى . وأنا أعرف ذلك . ولكن ذلك لا يمكن أن يثنينى عن القيام بدورى مهما كان صغيرا

ولكن الجهود لم تضنها ، والأعباء لم تقتلها ، بل بقيت دائما كما كانت قبل أن تفرعها الخطوب . وعاشت عمرها كاملا وكان بيتها فى مونت كارلو من أشهر بيوت الثقافة فى فرنسا ، وأوسعها صيتا ، وأبعدها ذكرا ، جمعتنى بها المصادفة مرة فى باريس ، وكانت تتناول الغداء فى مطعم بصحبة شاب فرنسى جميل ، وقد علمت منها أنها تزور باريس فى شأن من شئون مستشفاها ، وذكرت لى فيما ذكرت أنها سعيدة جدا مع ضباطها الناقهين ؛ فهم جميعا يعرفون قصتها فيشفقون على قلبها الضعيف ومزاجها الرقيق ؛ فما يدعونها ترهق نفسها بعمل مضنى أو أمر ثقيل ؛ وكلهم يرعونها ويرثون لحالها ؛ كما لو كانوا جميعا أزواجها ! ذكرت لى ذلك ثم أعقبته بتنهدة حرى أرسلتها فى الهواء ! ثم جعلت تقول :

ما أتعسك يا جورج ! من كان يظن أننى بقلبى هذا الكسير الضعيف المثخن بالجراح ، يمتد بها الزمن حتى أواريك التراب !! فقلت لها :

وما أتعس توم أيضا ! . ولا أعرف لم لم تسر لذكر توم . ولكنها قابلتنى بابتسامة

صفراء باهتة. ثم رأيت عينيها الزرقاوين الجميلتين تسحان بدمع سخين . ثم أخذت تقول لى :

إنك تبدو كمن يحسدنى على الأيام القليلة التى أقدر أن أعيشها ! فرددت عليها قائلا :

ولكنى أظن أن قلبك تحسن . أليس كذلك ؟ فأجابتنى :

لن أسير إلى خير من ذلك مطلقا . لقد كنت فى زيارة متخصص كبير هذا الصباح ، وقال لى يجب أن أكون مستعدة لأسوأ الظروف والفاجآت ؛ فقلت لها :

أجل ! لقد كنت مستعدة لذلك طيلة العشرين سنة الأخيرة ..

***

ولما وضعت الحرب أوزارها ، استقرت لوسى فى لندن . وكانت يومئذ فى أواخر شبابها وأوائل كهولتها ، شاحبة الخدين ، واسعة العينين ، نحيلة الجسم ، هزيلة الأعطاف ولكن سنها لم تبد يوما واحدا أكثر من الخامسة والعشرين

وكانت أيريس ابنتها فى ذلك الحين طالبة بالمدرسة . قد اكتمل عودها وامتلأ جسمها وقد جاءت لتعايش أمها . وكانت لوسى تقول :

إنها ستراعانى وتقوم على أمرى . وقد يثقلها أن تلازم سيدة عليلة سقيمة مثلى . ولكن أيامى معها لن تطول ؛ فسوف لا تتبرم بذلك أو تشقى .

كانت أيريس فتاة دمثة الخلق ، حلوة الطبع ، رقيقة الشعور ، وقد شبت وهى تسمع أن صحة أمها فى خطر دائم . وأن لا شئ مطلقا يجب أن يعكر صفوها أو يقلق خاطرها

وكانت لوسى تقول إنها سوف لا تسمح لفتاتها الصغيرة أن تضحى بنضرة شبابها وزهرة أيامها فى سبيل امرأة عجوز مثلها . ولكن قولها ذاك لم يجد عند فتاتها الطيبة أذنا صاغية أو قلبا واعيا ، فالأمر عند إيريس لم يكن أمر دين تفى به لأمها ، ولم يكن أمر تضحية تبذلها لصحتها .. وإنما كان سعادة وفرحة ورضى تحسها جميعا وهى تسعى لتسعد أما عزيزة بائسة كأمها

وبين التنهدات والزفرات كانت لوسى تسمح بأن تضحى كثيرا ، وتضحى دائما ..

كانت لوسى تقول : أن أيريس تسر كثيرا إذ ترى نفسها قد شبت عن الطوق وتضجت وصارت شيئا كبيرا يعمل فينفع .

وكنت أسألها :

ألا ترين أنه يحسن أن تعطى الصغيرة فرصة أكبر لتذهب هنا وهناك — تروح عن نفسها ، وتلعب مع لداتها ، وتنعم بوقتها وشبابها ؟ فترد على لوسى :

ذلك ما أقوله لها دائما . ولكنى قد عجزت أن أجعلها تسعد بأيامها ، وتنال من الحياة أطايبها وثمارها .. فأيريس لا تسمع لى

كلاما . والله وحده يعلم ما إذا كنت أرغب أن أرى أحدا يشقى لأجلي أو يضحي بحياته لحياتي . ولكني عندما عاتبت أيريس على مسلكها ذاك قالت لي :

يا لأمي المسكينة ! إنها لترغب إلى أن أزور صديقاتي ومعارفي ، وأن أغشى السهرات واشترك في الحفلات ؛ ولكني ما أكاد أهم بمغادرة البيت حتى يصرعها قلبها — ذاك العليل . ولهذا فأنا أفضل دائما أن أبقى بجوارها أقوم عليها وأرعى حالتها

***

وكانت سهام كيوبيد قد عرفت طريقها إلى قلب الصغيرة أيريس . وكان فارسها شابا رقيقا من أصدقائي . ولما طلب إليها أن تتزوجه وافقت على ذلك وارتاحت إليه . وقد اهتززت لذلك وطربت . فأيريس كانت أثيرة عندي . وكنت سعيدا جدا إذ أن زواجها كان سيهيئ لها حياة أسعد وأجمل من حياتها مع أمها . ولكن سبعا يصبح وإذا بخطيبها ذاك يأتيني محزونا كئيبا ليخبرني بأن زواجه قد تأخر إلى أجل غير مسمى . إذ أن أيريس قد شعرت بأنها لن تستطيع أن تتخلى عن أمها . وبالطبع أن الأمر لم يكن أمري . ولكن وجدت نفسي أقرع باب دار لوسي . وكانت يومئذ قد تقدمت بها الأيام وبدت عليها آثار السنين ، وأحاطت نفسها بجماعة من الأدباء والكتاب والفنانين يغشون ندوتها كل يوم في الأصيل ، يتناولون أقداح الشاي ويتجاذبون أطراف الحديث أشتاتا وألوانا قلت لها بعد أن استقر بي المقام قريبا منها :

سمعت أن زواج أيريس لن يتم ! فقالت لي :

أنا لا أعرف من أمر ذلك شيئا . ولكن أيريس تبدو كمن لا تريده قريبا . وقد توسلت إليها ألا تفكر في أمري . ولكنها تصر وتحرص على ألا تتركني وحيدة في محنتي هذه ! فسألتها :

ألا ترين في ذلك سحقا لقلبها ، وعصفا بحبها ؟ فأجابت :

صحيح ما تقول . ولكن الأمر لن يطول فما هي غير شهور وأكون قد فارقت هذه الدنيا . وشد ما يحزنني أن أرى أحدا يضحي بشيء من أجلي . فقلت لها وقد عيل صبري :

عزيزتي لوسي ! لقد واريت الثرى زوجين ولا أرى ما يمنعك أن تلحقيهما باثنين آخرين !

فحدجتني بنظرة ملؤها الخبث والمكر وجعلت تقول : أرى في كلامك هذا مزحة أو دعابة ؟

قلت لها : ألا يدهشك يالوسي أنك ترغبين في الأمر فتندفعين إليه كالإعصار لا تلوين على شيء حتى تؤديه كأحسن ما يكون الأداء ! ألا يدهشك أن قلبك هذا الذي ترمينه بالوهن والضعف لا يصدك إلا عما

تكرهين ؟! فقالت لى :

آه . أنا أعرف سوء ظنك بى . إنك لاتكاد تفطن إلى أى مكروه يلم بى ولا إلى أى خطر يحيق بحياتى !

وهنا رميتها بنظرة قاسية ، وقلت لها :

أبدا . أبدا . أعتقد أنك تمثلين ولا تصدقين ، وتقومين بخدعة هائلة طيلة هذه الخمس والعشرين سنة الأخيرة . ويقينى أنك أشد من عرفت من الناس أنانية وجشعا . لقد عصفت بشباب ذينك الرجلين اللذين رمت بهما الأقدار فى طريقك المشئوم ، وها أنت ذى اليوم تقيمين العقبات والسدود أمام سعادة ابنتك وهنائها . ولم أكن أستغرب لو سقطت لوسى بعد كلامى هذا من إعياء قلبها وهبوطه . وكنت أنتظر أن يتجهم وجهها ، وتعلو مراجل سورتها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل . بل إن ابتسامة عذبة رقيقة قد ارتسمت على ثغرها . ثم سمعتها تقول :

ستقدم عن قريب على تقولك هذا على .

فقلت لها :

والآن هل قرارك ألا تتزوج أيريس من ذلك الفتى ! فقالت لى :

لقد تضرعت إليها ما استطعت التضرع أن تتزوجه ؛ وأنا أعرف أن هذه هى القاضية على . ولكنى لا أبالى بنفسى . إن أحدا لم يعد يهتم بى . إن أحدا لا يرثى لحالى . أنا الآن عبء على الناس فادح . فمضيت أسألها :

« وهل قلت لابنتك إن زواجها ذاك قاض عليك ؟ » فأجابتنى :

« أجل لقد اضطرتنى أن أقول لها ذلك . » فقلت لها :

« إنك تبدين كما لو أن أحدا استطاع يوما أن يحملك على شىء تكرهينه . » فردت على مغيظة :

« لأيريس أن تتزوج فتاها اليوم أو غدا وإن كان ذلك قاتلى ، فلأذعن له ضحية وقربانا . » فقلت لها :

« أجل دعينا نخاطر بذلك . » فقالت لى معاتبة :

« أما فيك نحوى عاطفة أو رأفة ؟ » فقلت لها :

وهل يستطيع قلب أن يشفق على شخص يبعث فيه من التسلية والضحك والدعابة مثلما تبعثين ؟ » وهنا اربد وجهها وامتقع خداها ، وإن تكلف ثغرها الابتسام فلا شك أن قلبها كان يتميز غيظا . ثم أخذت تقول لى :

ستزف أيريس إلى عريسها فى نحو شهر ، وإذا ما أصابنى سوء أو مسنى ضر فأرجو الله أن يغفر لك ولأيريس كيدكما وبغيكما . وكانت صادقة الوعد فى ذلك :